الأدب عند الرومنطيقيين العرب

د. منصور أمين.ك[1]

الملخص

إن الرومنطيقية حركة فكرية وثورة أدبية ظهرت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر في فرنسا، ثم انتقلت إلى الآداب العالمية الأخرى من أمثال إنجلترا وإسبانيا وألمانيا وما إلى ذلك. تهتم هذه الحركة الرومنطيقية بمصالح الفرد وتتحدث عن المشاعر والعواطف الفردية، فالتصوير عن حب الطبيعة والتعبير عن هموم الإنسان ومشاعره وعواطفه والتركيز على تصوير الأشجار والأنهار وكل ما تتعلق بالطبيعة من القواعد الأساسية للحركة الرومنطيقية. تحرر هذه الحركة الرومنطيقية من قيود العقل والواقعية وتميل إلى التجديد، وتتصف بالسهولة في التعبير والتفكير وإطلاق النفس على سجيتها والاستجابة لأهوائها. ظهرت في الأدب العربي الحديث بعدة أسباب، ومنها حملة نابليون على أرض مصر، وعلاقة أهل لبنان بالفرنسة، ورحلة الأدباء من لبنان وسوريا إلى أمريكا الجنوبية والشمالية. وأما هذه المقالة فقد تضيء ضوء بسيطا على الخصائص الهامة التي امسك بها الأدباء الرومانتيكيون في الأدب العربي الحديث.

الكلمات المفتاحية: خصائص الرومنطيقية الغربية – خصائص الرومنطيقية العربية – المقارنة بين الرومنطيقية الغربية والعربية – الخاتمة

التمهيد

قبل أن نعمق إلى هذا البحث لا بد المناقشة عن العلاقة بين الرومنطيقية الغربية والعربية. إن الأدب العربي الحديث قد تأثر كثيرا بالآداب الغربية، وقد فاق تأثرها بأي

---

١ أستاذ المساعد ومشرف البحث، قسم اللغة العربية، كلية يم. يي. يس ممباد (الحكم الذاتي)

أدب وفي أي زمان سبق، وذلك منذ أن أخذ العرب يتصلون بالعالم الغربي.١واستقر النقاد على الرأي بأن بداية الرومانتيكية في الأدب العربي الحديث كان باحتكاك العرب مع أوربا، ولكن هذا الاحتكاك الأوربي العربي لم يحرز وفاقا وتساويا مائة بالمائة، بل بينهما فرق واضح. ويبرز هذا الفرق بعد ما نقارن بينهما مقارنة فنية، يقول الدكتور علي عباس علوان:" إن مقارنة الانجازات الكبرى للرومنطيقية الأوربية وخطوطها العامة سواء في النظرية الشعرية أم في تجديد بنية القصيدة ونسيجها، أم في هذه الحركة التي أثارتها في تاريخ الفن الإنساني، وما دار حولها من نظريات واستحداثات. وهذه الصورة التي نجدها تختلف كثيرا جدا عن صورة الموجة الرومنطيقية التي شاعت في بعض الأقطار العربية منذ مطلع القرن، ثم اتسعت بسرعة حتى الحرب الكونية الثانية."٢ وقد بقي هذا الاتجاه في الشعر العربي مملوء بسماته العامة من أحزان الشعراء وشكواهم وتمردهم أحيانا، وأشواقهم للطبيعة، وتغيير الأوزان في القصيدة، والحنين إلى أيام الطفولة وبرائتها، والحيرة والشك والتردد. هذه الظواهر العاطفية والسمات الشكلية والموضوعية التي نجدها عند شعراء العرب المحدثين لهذه الفترة، قلما اجتمع جميع هذه الصفات في شاعر واحد أو جماعة واحدة ولا شك أن هذه السمات والظواهر تلتقي في خطوطها النوعية العامة بالسمات الأساسية لتلك الرومنطيقية الأوربية، ولكنها تختلف عنها في الدراسة اختلافا كبيرا، وهي درجة عمق هذه الأحاسيس، وتلك العواطف والمنازع والسمات.

والحقيقة أن الرومنطيقية العربية لم تحرز تقدما هائلا من التجديد وأحداث الانعطاف الكبرى في البنية الفكرية والثقافية والفنية على ساحة الشعر العربي. والسبب الرئيسي الأول وراء هذا الخلاف بين صورة الرومنطيقية الأوربية، وبين موجة

---

١ الرائد، لكنو، الهند، العدد :٨، أكتوبر ٢٠١٤، ص-١١.

٢ البعث الإسلامي، مجلة إسلامية شهرية جامعة -المجلد -٤٥، العدد العاشر، جمادي الثانية ١٤٢١هجرية، ص -٧٩.

الرومنطيقية العربية، هو الجانب السياسي والاجتماعي اللذان يتمثلان في الاختلاف ما بين نشأة البرجوازية العربية وحركتها ونشاطها. والسبب الثاني هو غياب الفنان العظيم ذي القدرات الهائلة والإمكانات المتعددة.١وقد تحمل الرومنطيقية الغربية والعربية سمات وخصائص تتميز بها عن الآخر. ومن خصائص الرومنطيقية الغربية الهامة:

١. الاهتمام بالعاطفة وبالأعمال الشعرية.
٢. الاهتمام بالفرد ورغباته.
٣. الميل إلى الشعر الغنائي.
٤. مناجاة الطبيعة ومعاملتها أنها كائن حي يشارك الشعراء مشاعرهم.
٥. تتصف بالشكوى والحزن والألم.
٦. يعتمد على الخيال والتصوير في التعبير عن الأفكار.
٧. تحاول الإبداع والتجديد في أسلوب الشعر وأعراضه.
٨. لا تحفل بالقواعد اللغوية الموروثة، بل تهتم بالتعبير عن المعنى.

وأما من خصائص الرومنطيقية العربية فمنها:

١. الخيال المجنح المحلق.
٢. تكرار الألفاظ والاهتمام بالتغبير عن المعنى.
٣. جعل أحزان الفرد وأحلامه محور الحديث والتركيز عليه.
٤. التفاعل مع الطبيعة.
٥. الانصراف إلى الطبيعة.

١البعث الإسلامي، مجلة إسلامية شهرية جامعة -المجلد -٤٥، العدد العاشر، جمادي الثانية ١٤٢١هجرية، ص -٨٣.

٦. التعبير عن تجربة ذاتية وعدم تكلف الألفاظ وتصنعها.[١]

ومع ذلك كله نجد مشابهات كثيرة بين هاتين النزعتين، ونبحث هنا عن بعض خصائص الرومنطيقية العربية التي نجدها لدى أدباء العرب، ومنها:

الثورة على القديم و أنصاره

يكتشف في يسر في النصوص النظرية التي كتبها الرومنطيقيون العربيون بأنهم ثاروا على ما كان شائعا في أيامهم لإرساء مذهبهم النظري الجديد. وقد كان ميخائيل نعيمة من أبرز الكتاب الرومنطيقيين الذي يعبر عن ذلك منذ سنة ١٩١٣م قبل أن يصبح المنظر الأول لجماعة المهجر فيقول في كتابه 'جبران خليل جبران': " قرأت الرواية٢ فاستفزتني كتابة مقال فيها دعوته 'فجر الأمل بعد ليل اليأس' وأرسلت به إلى 'الفنون' وهو أول مقال نقدي حبرته، فكان فاتحة حياتي الأدبية وقد نددت فيه تنديدا مرا بجمود اللغة العربية في خلال عصور طويلة.."٣

وقبل تأسيس الرابطة القلمية، هب الكاتب والفيلسوف المهجري أمين الريحاني مطالبا إلى الشعراء بنبذ موضوعات الشعر التقليدي وعدم السير في رقاب الأقدمين من ابتداء القصائد بالبكاء على الأطلال وتذكر الأحبة ممن غادروا الديار. ويقول في إحدى وصاياه: "حرروا صناعتكم من قفا نبك وسائق الأظعان إن عندكم اليوم الطيارات لتسوقوا النجوم."[٤]. والعقاد والمازني يقدمان لكتاب 'الديوان' بقولهما: "وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل وقضى أن تحطم كل عقيدة أصناما عبدت قبلها، ولهذا

---

١ عماد علي سليم الخطيب، في الأدب الحديث ونقده، الطبعة الأولى-١٤٣٠هـ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ص -٢٤٠.

٢ يعني رواية "الأجنحة المتكسرة" لجبران خليل جبران.

٣القرقوري، فؤاد، أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، التوصية للطباعة وفنون، ص- ٩٦.

٤ نادرة جميل سراج، شعراء رابطة القلمية، دار المعارف بمصر، ص-١١٧.

اخترنا أن نقدم تحطيم الأصنام الباقية على تفصيل المبادئ الحديثة ووقفنا الأجزاء الأولى على هذا الغرض."[١]

وبالجمل تطالب الرومنطيقية بالتحرر من القواعد والتقاليد وتأكد أهمية التلقائية والغنائية، ذلك لأن الرومنطيقية تقدمية تنظر إلى المستقبل ولا تحترم قدسية الأدب القديم لأنها تحترم ذاتية الفرد.[٢]

رفض القديم في شكله

يعتقد الرومنطيقيون بأن يرفض شكل الأدب القديم الذي يعانق به القدماء. ولعل أكثر الرومنطيقيين نقمة على أنصار الجمود اللغوي والتقليد البلاغي، وميخائيل نعيمة وهو أحد من المجددين يسخر في "نقيق الضفادع" : "في الأدب العربي اليوم فكرتان تتصارعان، فكرة تحصر غاية الأدب في اللغة وفكرة تحصر غاية اللغة في الأدب.. فذوو الفكرة الأولى لا يرون للأدب من قصد إلا أن يكون معرضا لغويا يعرضون فيه على القارئ كل ما وعوه من صرف اللغة ونحوها وبيانها وعروضها وقواعدها"[٣]. ويتجلى رفض الرومنطيقيين للشكل الأدبي القديم في مستوى وحدة القصيدة الشعرية وعلاقة أبياتها بعضها ببعض. فهم يعيبون على قصائد مقلدي القدامى قائلين بأنها لا تمثل من حيث التركيب بناء فنيا متماسكا تماسكا عضويا، وقد سخر العقاد من التصور التقليدي لهيكل القصيدة بقوله: "ولكنني مكتف بأن أقول إنني كنت اختار موضوعات قصائدي ولست أحسب في اختيارها وصياغتها حسبا للذين

١القرقوري، فؤاد، أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، التوصية للطباعة وفنون، ص- ٩٦.

٢ دعبيس، صعد، الغزل في الشعر العربي الحديث في مصر من سنة ١٨٥٠-١٩٦٧، المطبعة الوطنية – بنغازمي، ص- ٣٩٤.

٣القرقوري، فؤاد، أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، التوصية للطباعة وفنون، ص- ١٠٧.

يأخذون الشعر بيتا بيتا ثم لا يفرقون بين الأبيات التي توضع في قصيدة واحدة والأبيات التي توضع في قصائد شتى بغير الاتفاق في الوزن والقافية."[١]

وإن أول ما تجدر الإشارة إلى شكل الأدب في مجال الحديث عن نظرية الرومنطيقيين العربيين لمشكلة الصياغة الأدبية، فقد تناولوا بادئ ذي بدء مادة الأدب وهي اللغة، كقول نعيمة في "الغربال": "إن لمفردات اللغة التي نصوغ منها منثوراتنا ومنظوماتنا صفات عجيبة وميزات غريبة، فلكل كلمة معنى أو روح.."[٢]، ولكنهم أحسوا بالفرق بين اللغة ذات الوجود القاموسي والكلام الأدبي الذي هو استعمال خاص لها. ولئن ثار الرومنطيقيون العربيون على التصور التقليدي للتعامل مع اللغة، وذلك التصور الذي يقوم على محاكات القدامى على كلامهم وترديد ألفاظهم، وأنهم قدموا البديل لذلك. والبديل فيما يرون إنما هو تطوير اللغة وربط الكلام الأدبي واللغة عامة بالحياة وجعلهما مواكبين لها، على نحو ما أشار جبران إلى ذلك بقوله: "أغني بالشاعر ذلك الزارع الذي يفلح حقله بمحراث يختلف ولو قليلا عن المحراث الذي ورثه عن أبيه فيجيء بعده من يدعو المحراث الجديد باسم جديد.."[٣]. وقد جبران يعتقد بأن اللغة مظهر من مظاهر الابتكار في مجموع الأمة، أو ذاتها العامة، فإذا نامت قوة الابتكار توقفت اللغة عن مسيرها، وإذا كان أنصار القديم من المقلدين يرون أن الإنشاء الأدبي قيمته في المجاراة القدامى في استعمال غريب اللغة، فإن الرومنطيقيين العربيين قدموا مفهوما جديدا للفصاحة.

رفض القديم في مضمونه

تستمد مضمون الإبداعيات الكلاسيكية من الطبقة في المدينة وحياتهم

١المرجع السابق، ص- ١٠٨.

٢ نفس المرجع، ص- ١٠٨.

٣القرقوري، فؤاد، أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، التوصية للطباعة وفنون، ص- ١٠٩.

الاجتماعية وتستمد الإبداعيات الرومنطيقية من الفرد ومشاعره من الطبيعة.١ وإن رفض الرومنطيقيين القديم في شكله لا يقل حدة عن رفضهم لمضمونه، فكثيرا ما ثاروا على المواضيع والأفكار التي كان المقلدون يتخذون منها مادة لأدبهم، وقد اغتنم العقاد مثلا فرصة تقديمه للديوان الثاني الذي أصدره عبد الرحمن شكري للتنديد بالمضامين القديمة فقال :" ليس للشعر التقليدي فائدة قط وقل أن يتجاوز أثره القرطاس الذي يكتب فيه أو المنبر الذي يلقي عليه "٢ ويتردد صدى الثورة على المضامين التقليدية بصفة مباشرة أو غير مباشرة عند كافة الرومنطيقيين العربيين.

وعند الرومنطيقيين رؤية خاصة في مضمون الأدب، يقول عبد الرحمن شكري: "فينبغي للشاعر أن يتعرض لما يهيج فيه من العواطف والمعاني الشعرية وأن يعيش عيشة شعرية موسيقية بقدر استطاعته، وينبغي له أن يعود نفسه على البحث في كل عاطفة من عواطف قلبه وكل دافع من دوافع نفسه، لأن قلب الشاعر مرآة الكون، فيه يبصر كل عاطفة جلية وشريفة، وفاضلة أو قبيحة مرذولة وضيعة"٣

ومن آراء الرومنطيقيين تصوير الظواهر الاجتماعية، على نحو ما أثبته العقاد في تقديمه الجزء الثاني من ديوان صديقه شكري إذ قال: "فالشعر لا تنحصر مزيته في الفكاهة العاجلة والترفيه عن الخاطر ولا في تهذيب الأخلاق وتلطيف الإحساسات، ولكنه يعين الأمة أيضا في حياتها المادية والسياسية، وإن لم ترد فيه كلمة من الاقتصاد والاجتماع. فإنما هو كيف كانت موضوعاته وأبوابه مظهر من مظاهر الشعور

---

١ الخطيب، عماد علي سليم، في الأدب الحديث ونقده، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ص- ٢٤١.

٢القرقوري، فؤاد، أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، التوصية للطباعة وفنون، ص- ٩٩.

٣القرقوري، فؤاد، أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، التوصية للطباعة وفنون، ص- ١٠٤.

النفساني، ولن تذهب حركة في النفس بغير أثر ظاهر في العالم الخارجي".١ ومع ذلك فالأمانة العلمية تقتضي بأن نعترف بوجود بعض النصوص التي دعا فيها الرومنطيقيون العربيون صراحة إلى أن يكون الأدب معبرا عما يدور في المجتمع وعما يجد فيه. وميخائيل نعيمة يقول مثلا في " الغربال" : " لكننا نعتقد في الوقت نفسه بأن الشاعر لا يجب أن يطبق عينيه ويصم أذنيه عن حاجات الحياة وينظم ما توجه إليه نفسه سواء كان لخير العالم أو لويله. لذاك يقال إن الشاعر ابن زمانه وذاك صحيح في أكثر الأحوال إن لم يكن في كلها."٢. نستخلص من كل ذلك أن مضمون الأدب في النظرية الرومنطيقية يتصف أولا بالإنسانية، لأنه يهتم بالنفس البشرية ويسبر أغوارها ويغوص فيها باعتبارها واحدة على امتداد العصور وتباعد الأمكنة.

الدعوة إلى التجديد

رفض الرومانتيكيون العربيون نظرية الأدب التقليدية، ويقترحون التجديد حلا بديلا، وقد جاء التعبير عن ضرورة التجديد في كتابات الرومنطيقيين مصاحبا لثورتهم على القديم التقليدي وعلى أنصاره. يقول الشابي متحدثا عن الأدب العربي في عصره: " والحق أنه قد أصبح من العسير جدا على الأديب العربي المعاصر أن يعصم نفسه من التأثر بالروح الأجنبية، فهو لا بد أن يتأثر بهذا الروح ولو تأثرا لا شعوريا."٣. على هذا النحو اكتشف الرومنطيقيون العربيون بأن الطريق الفاضل إلى التجديد ينبغي أن توصلهم إلى آداب الحضارات الأجنبية وإلى فكرها وفنها ويدعون إلى ذلك صراحة وجهرا. يقول ميخائيل نعيمة في "الغربال" في عنوان " فلنترجم" أحسن مثال على دعوة الرومنطيقيين إلى ضرورة الانفتاح على الآداب الأجنبية، فيقول: " نحن في دور من رقينا

---

١ المرجع السابق، ص- ١٠٥.

٢ نفس المرجع، ص- ١٠٦.

٣القرقوري، فؤاد، أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، التوصية للطباعة وفنون، ص- ١٠٠.

الأدبي والاجتماعي تنبهت فيه حاجات روحية كثيرة لم نكن نشعر بها من قبل احتكاكنا الحديث بالغرب، وليس عندنا من الأقلام والأدمغة ما يفي بسد هذه الحاجات، فلنترجم."[١] وهكذا يحث الرومنطيقيون إلى تجديد الأدب واكتشفوا الطريق إلى ذلك التجديد فانعكس كل ذلك على تصورهم ماهية الأدب وشكله ومضمونه ووظيفته.

خاتمة

فقد يظهر لنا من هذه الدراسة أن وظيفة الأدب هي تصوير لخلجات النفس ومشاعرها وتعبير عن تطلعاتها وعواطفها. فالرومانتيكيون يعتقدون بأن وظيفة الأديب هي أنه يعبر عما في خلجاته ويكتشف ما في عوالم نفسه. فإذا كان الأدب تساؤلا عن حقيقة الموجودات فإن مهمة الأديب هي' في الإبانة عن الصلات التي تربط أعضاء الوجود ومظاهره'. وقد عبر الشاعر أبو القاسم الشابي عن ذلك في إحدى رسائله قائلا: "إن الفنان يا صديقي لا ينبغي أن يصغي لغير ذلك الصوت القوي العميق الداوية في أعماق قلبه – أما إذا أصغى إلى الناس وما يقولون وسار في هذه الدنيا بأقدامهم. فقد كفر بالفن وخان رسالة الحياة".[٢]. وبالجملة يمكن لنا القول إن الأدب عند الكلاسيكيين محاكات الآداب القديمة والاهتمام بالملاحم والبطولات والاعتماد على العقل بدلا من العاطفة والخيال الكثير، بينما ينظر الرومنطيقيون إلى الأدب بأنه خلق وإبداع ووسيلة لتحسين المشاعر والأفكار، وبحث عن الجمال. فالكلاسيكيون يعطون العقل والمنطق أهمية كبيرة وقيمة أساسية في تخليق الأدب وفي تحسينه، بينما يعطون الرومنطيقيون العواطف والأحاسيس دورا مهما في تخليق الأدب، كما كانوا

---

١ المرجع السابق، ص- ١٠١.

٢القرقوري، فؤاد، أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها، التوصية للطباعة وفنون، ص- ١١٤.

يركزون العناية البالغة على الطبيعة بدلا من العقل والمنطق[1].

المصادروالمراجع

١. القرقوري، فؤاد: أهم مظاهر الرومنطيقية في الأدب العربي الحديث وأهم المؤثرات الأجنبية فيها.

٢. الخطيب عماد علي سليم: في الأدب الحديث ونقده، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة.

٣. صعد عبيس: الغزل في الشعر العربي الحديث في مصر من سنة ١٨٥٠-١٩٦٧.

٤. نادرة جميل سراج، شعراء رابطة القلمية، دار المعارف بمصر.

٥. الخطيب عماد علي سليم: في الأدب الحديث ونقده، الطبعة الأولى-١٤٣٠هـ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة،

٦. البعث الإسلامي، مجلة إسلامية شهرية جامعة -المجلد -٤٥، العدد العاشر، جمادي الثانية ١٤٢١هجرية.

٧. الرائد، لكناؤ، الهند، العدد :٨، أكتوبر ٢٠١٤.

١ الخطيب، عماد علي سليم، في الأدب الحديث ونقده، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ص-٢٤١.